بلاغة العرب والافرنج

لحضرة الدكتور نقولا فياض

استميح حضرة احمد افندي كامل ابداء بعض ملاحظات في شأن ما كتبهُ عن بلاغة العرب والافرنج تكون تعليقًا وشرحًا لما ردَّ بهِ عليهِ حضر خليل افندي ثابت

قال اللورد بيرُن الشاعر الانكليزي ان من اكبر المصائب على المؤلفين ان تنقل مؤلفاتهم الى لغة غريبة . وما ذلك الاَّ لان الترجمة قاصرة كل القصور من استيعاب محاسن الاصل وحفظ جمال الصورة الاولى ولهذا ترى كثيرًا من القطع المشهورة بعلو طبقتها تخسر من بلاغتها في الترجمة لان اكثر ما فيها من التشابيه والاستعارات لا يكون ملائمًا للسان المترجمة اليهِ ولان البلاغة ليست في المعاني وحدها بل هناك طرقٌ في التعبير واساليب في انتقاء الالفاظ ومناحي في التصور تختلف باختلاف الزمن والمكان والشعوب . بل المعاني موجودة في نفس كل واحد كما قال ابن خلدون والكاتب البليغ يفضل سواهُ لا بمعانيهِ بل لانهُ اعرف بلغتهِ الفصحى واقدر على انتقاء الالفاظ الموافقة لتلك المعاني فماذا تترك لهُ من هذه الصفة المميزة ان جردتَ معانيهُ من القالب الذي افرغها فيهِ والبستها ثوبًا جديدًا غريبًا

ثم ان من التصورات والنعوت ما يستحسن في لغة ويستهجن في سواها فان ابقيتهُ اضعفت من قوة الترجمة وان اغفلتهُ افسدت من جمال الاصل . ذلك ما جرى في تعريب ابيات فكتور هيكو اورد منها هذا المثل " لقد وقع في هذا السهل موقعة كبرى خلط الموت فيها الجيوش " . والاصل في هذا البيت " لقد وقع في هذا السهل الساكن موقعة كبرى خلط الموت الاصفر فيها الجيوش المظلمة " . ومن هذا القبيل تشبيه المؤلف الجيوش في تموجها بكومٍ هائلة من الشوك ذات حياة فقد اضطرَّ المعرب الى الاعراض عن هذا الشطر لعدم إلفة لساننا العربي لهذه التشابيه . وبما اوردهُ حضرة خليل افندي ثابت من الامثال اكتفاءً وغنى عن التطويل . ولهذا ارى ما قالهُ حضرة الكاتب الاول من انهُ " ليس في ما وصلنا من كلام الافرنج ومختار اشعارهم شيء من البلاغة " تسرُّعًا في الحكم فقد نال هيكو بسمو افكارهِ وسعة تصوراتهِ وبلاغة تراكيبهِ ارفع منزلة بين الفرنسيس وغيرهم من اهل الادب الاوربي وتناقل اسمهُ كتبة الالمان والانكليز والطليان والروس ونحن نريد الآن بكلمة ان نجودهُ من كل هذا المجد لمجرد قراءتنا بعض ابيات لهُ ترجمت الى لساننا لغتها ابعد اللغات عنهُ اشتقاقًا . وانهُ ليكفينا للدلالة على مكانتهِ من عالم التحرير ان ما قرأناهُ من اشعارهِ المترجمة لم يزل عليهِ لحة

من البلاغة ومسحة من جمال لغتهِ الاصلية بالرغم عما خسرهُ في الترجمة للاسباب التي بيناها فضلاً عن ان المعرّب لم يسلك في تعريبهِ مسلك المؤلف من التخيل الشعري بل اخذ طريق النثر المرسل فكانهُ ترجم الابيات مرتين لان حل المنظوم الى منثور ترجمة لا نقل عن النقل من لغة الى لغة . ثم انهُ تصرف كثيرًا في الترجمة فحذف جملاً في اعظم مكان من القوة والتأثير ووصل كلامًا كان الفصل احق بهِ . من ذلك قول المؤلف في قصيدة التكفير (ايكي يا وترلو وقف متأسفًا لان هؤلاء الابطال آخر جيش لآخر حرب كانوا عظماء لقد فتحوا الارض ودوخوها وطردوا عشرين ملكًا وجازوا الالب والرين " وكانت نفوسهم تغني في ابواقهم النحاسية ")فاعرض المعرب عن ترجمة البيت الاخير مع ان وراءهُ معنى جميلاً اذ قصد المؤلف ان يقول ان نغمات الموسيقى لم تكن الاَّ اصوات نفوسهم لان نفوسهم كانت تبسم للحرب فتجسمت في تلك الاصوات . وليس بعزيز ان يفرغ هذا المعنى في قالب جميل غير اننا اثرنا تعريبهُ بالحرف الواحد اجتنابًا للابتعاد عن الاصل ما امكن . ومثل ذلك قول المعرب في القصيدة الثانية المسماة نابوليون "ثم كلمهُ الشاعر من وحي الغيب". فهذه العبارة وان حسنت ليست في الاصل ولا حاجة اليها البتة لان الشاعر عند وصولهِ الى هذا الموقف ينتقل من الوصف الى التأملات وذلك ابلغ في التأثير

وكنت اود لو اتاح لي الوقت نقل الابيات برمتها لا طمعًا بمعارضة المعرب بل صرحًا على الصورة الاصلية . ولعلَّ المرحوم الشيخ نجيب الحداد لم يقصد بترجمة ما ترجم من ابيات القصيدتين الاَّ حكاية الواقع فاعرض عن اكثر ما فيها من التصورات والعبارات الشعرية . وعندي لو كان مرادهُ اظهار مكان الشاعر لما محا هذا المحى فكان اختصارهُ لها اقتضابًا وهو من المقدرة في الانشاء بمكان يعلمهُ كل قارىء للسان العرب

وقد قرأت الترجمة المدرجة في المقتطف على مسمع احد الادباء العارفين باللغتين الفرنسوية والعربية فما احدث سماعها فيهِ تأثيرًا غريبًا ثم اعدت على مسمعهِ قصيدة هيكو من اولها الى آخرها بالفرنسوية فما تمالك نفسهُ مرارًا عن النهوض عن مجلسهِ تجسمًا . ولا ريب ان حضرة احمد افندي يفعل ذلك ان أُتيح لهُ مطالعة تلك القصيدة السامية ويرجع عن قولهِ " ليس في هذه القصيدة من وصف الحرب اكثر مما تراهُ في الجرائد كل يوم من وصف المعارك والمواقع والقواد "

وهنا أُذكر حضرتهُ ان المواضيع التي كتب بها الافرنج اكثرها تاريخي يتقيد بهِ الشاعر او ادبي وصفي انتقادي فاين القصائد العربية في هذا الباب . ومعاذ الله ان اقصد بذلك تحقير

لغتنا الشريفة فهي من افصح اللغات واوسعهن ولكن الناظمين فيها قلما تعدوا حدود الغزل والمديح والرثاء . ولا ادري اين وجه الشبه بين الابيات التي اوردها وابيات هيكو في تلك الفتاة التي ذهبت شهيدة الرقص . فالشاعر العربي يرثي ابنة ويصف اسفهُ الشديد ويبكيها بالدمع والدم والسهاد والمشيب وهيكو يصف الحادثة وصفاً طبيعياً تخال بهِ انك حاضر تلك الليلة الراقصة تنظر الى الفتاة عن قرب وتتبعها في حركاتها وترافقها في تأثراتها . واذا امعنا النظر نرى أن الشاعر العربي لا يخرج عن دائرة نفسهِ فهو ظاهر من خلال اقوالهِ واما الشاعر الفرنسوي فيختفي ليظهر بطل الحادثة التي يصفها وهذه نهاية المقدرة

وقد ذكر حضرة احمد افندي رسالة لسماحة السيد البكري قصد بها اظهار الموازنة بين الشاعرين وقد اتفقا في غرض واحد تقريباً . فتروَّيتها كثيراً فلم اجد فيها معنًى فات هيكو او غيرهُ ممَّن كتب عن نابوليون بل وجدت فيها معاني تشبه كل الشبه ما قرأتهُ في كتب اولئك كقولهِ هو كرة الارض قامر بها الرجل فربحها في ساعة وخسرها في اخرى وقولهِ قهرهم وخسر شعبهُ فكان هو المقهور . نعم في الرسالة تشابيه كثيرة جميلة اختص بها اللسان العربي ولا يقدر عليها الاَّ من رسخت فيهِ ملكتهُ ولكن سماحتهُ وصف نابوليون لا كما كان نابوليون بل تذكر الحارس على النعامة وعمرًا في يدهِ الصمصامة ورسم في مخيلتهِ معركة حربية وصفها باحسن ما جاد بهِ قلم عربي وذكر "سيوفًا تهادى كانها ورق النجر هزهُ سقوط المطر وجماجم على الرماح كانها همزات على الفات" الى غير هذا من تشابيه بديعة واستعارات بالغة حد الحسن ولكنها بعيدة عن الواقع وما كان اقرب الى الحقيقة لو اعتاض عن السيوف والرماح وتطاير فراش الهام بوصف المدافع واصواتها والبارود ودخانهِ لان عليها كان مدار تلك الحرب . ثم وصف نابوليون "وهو يخطر بين الصفين ويهرول بين العدوتين ويلتفي في الوقدة الريح بالريح كما يلتقي في الرقدة الهدب بالهدب" كما نقرأ في حروب الجاهلية من العرب لا كما يرويهِ لنا التاريخ عن نابوليون لانهُ لم يكن يشهد الحرب الاَّ ليقف في مكان يشرف منهُ على كل الجيوش ويناظر حركات رجالهِ ويقاوم بتدبيرهِ هجمات اعدائهِ

وقد ذكر حضرة احمد افندي كامل هذه الرسالة مثلاً في البلاغة فهل يريد ان نسلك هذا المسلك بالاكثار من التشابيه والسجع مما يذهب بوقت القارىء كما يذهب بوقت الكاتب . ونحن في زمن اصبح الوقت فيهِ ثميناً عند القارىء والكاتب معاً . وحبذا لو قام سماحة السيد البكري وغيرهُ من قادة العقول وفرسان الاقلام الى الكتابة بطريقة جديدة توافق العصر الحاضر فانَّا نرى الافرنج يهربون من التقليد وينزعون الى الجديد وكلما اتى عليهم زمن لحق

اللغة نصيب من التغير الذي يصيب العادات فترى منهم كل يوم تقرُّبًا جديدًا من الحقيقة وبعدًا عن الاوهام وزخرف التصنع ونحن لا نزال متبعين سنة التقليد لا استقلالَ عندنا في الفكر ولا تفنن في الصناعة فاذا اردنا وصف موقعة مثلاً نصفها كما تعودنا ان نقرأ ونسمع عن المواقع لا كما هي تلك الموقعة فشاعرنا ككاتبنا وكاتبنا كشاعرنا. ترى الشاعر لا يصرف جهد قريحته الى غير المدح والرثاء فاذا مدح ابتدأ بالغزل واذا رثى بالنصح. اما التغزل فبالغزال واليمامة والعقيق ونجد وغير ذلك مما لا علم لنا به الان واما النصح فبالدنيا الغرور والدهر الخؤون حتى لو جمعتَ كل ما قاله الشعراء في هذين الموضوعين لم ترَ ادنى فرق بين الواحد منهم والاخر ولا يمكنك ان تختصر تلك المجلدات الضخمة بصفحات قليلة لان معانيها مكررة واستعاراتها معادة فالشعر عندنا كما يميل القريحة عُود ولكن ليس فيه الاَّ وترٌ واحد يضرب عليه الكل فيختلف الصوت تبعًا لقوة الضربة وحركة الانامل

والغريب ان اكثر شعرائنا وكتبتنا لا يريدون تغيير القديم بل لا يقبلون بالجديد فان سمع الواحد منهم بيتًا جديدًا او معنًى غريبًا قال هذه تصوُّرات افرنجية كأن فكر العربي قاصرٌ عن الاختراع وليس لهُ قدرة على الابداع فاذا قلت مثلاً حيث الكواكب هبوط الليل او سمع الانسان صوت ضميره انكروا عليك ذلك كأنهُ لا يجوز للتصور العربي ان يستعمل مثل هذه التحية ولا يحق لهُ ان ينسب الى الضمير صوتًا يتكلم. ومن كان مثل هؤلاء فهو ناسٍ ان الانسانية تمشي الى الامام والانسان فيها مدفوع الى السير مضطر الى التقدُّم محظور عليه الوقوف او الرجوع فهو في حياته العقلية اشبه به في حياته البدنية فكما يضطرهُ تعاقب الفصول وتغير الاوقات الى تغيير معيشته من المأكل والملبس والمبيت تضطرهُ معاملتهُ العقلية وعلائقهُ الجامعية الى مجاراة الاحوال والتكلم بلغة العصر. ولو قام ابناؤنا في القرن التالي وقرأوا ما كتبناهُ في غير العلم والسياسة لما حسبوا اننا عشنا في هذا العصر الممتاز عن سائر العصور السالفة بل ظنوا اننا عشنا في عصر قبل هذا وزمن لم يكن فيه ما نراهُ الآن من حقائق العلم وعجائب العمران

(المقتطف) لما ذكرنا ترجمة كبلنغ الشاعر الناثر المشهور قلنا صريحًا ان ملايين من البشر "يسمعون لهُ لا لفصاحة منطقه ولا لبلاغة اقواله بل لانهُ يقول لهم ما يودون سماعهُ ويصف لهم طباع الناس واحوال الزمان والمكان وصفًا منطبقًا على الحقيقة تمام الانطباق". وقلنا في آخر تلك الترجمة "وربما ترجمنا مقالةً او اكثر من مقالاته مثالاً لاسلوبه في الانشاء" ثم لما انجزنا الوعد وترجمنا مقالةً من مقالاته في الجزء الاخير من السنة الماضية جعلنا عنوانها "مثال في الانشاء" وغرضنا من ذلك اظهار اسلوبه في الكتابة ولم ندَّعِ ان ما نقلناهُ عنهُ

من ابلغ ما كتبهُ ولا اننا توخَّينا في نقلهِ اظهار بلاغة الافرنج . ولذلك لم يصب حضرة احمد افندي كامل في التمثل بما ترجمناهُ عنهُ . وسننشر في الاجزاء التالية ترجمات تظهر بلاغة الافرنج باجلى بيان . وحبذا لو يتحفنا الكتَّاب الكرام بكل ما لديهم من هذا القبيل

رواية تنكرد

الفصل السادس

لا تصير الاخلاق ملكات راسخة في النفس الاَّ في سن معلوم يختلف باختلاف الميل الفطري . ولم يكن تنكرد قد بلغ هذا السن ولكنَّ ميلهُ الفطري كان شديدًا فكان كثير العزلة كثير التأمل كما تقدَّم فاقرَّ على امور همَّم نيتهُ على بلوغها مهما كلفتهُ من المشاق . وقد عمل بما طلب منهُ والداهُ لانهُ كان شديد الطاعة لهما بالفطرة ولكنهُ لم يرَ في محافل الانس التي القياهُ فيها شيئًا يسرُّهُ ويلائم طبعهُ فكنتَ تراهُ صامتًا ينظر الى الناس ولا يسرُّ برؤيتهم لانهُ يجدهم بعادًا عن البساطة مكثرين من التعجُّب يلاقي بعضهم بعضًا فيتكلمون جملاً قصيرة مبتورة كأنهم في شغل شاغل ولا شغل لهم وكلٌّ منهم باسمٌ لا عن سرور بل عن تصنُّع . ولا اجهل ممَّن يظن الابتسام شرطًا لازمًا لارضاء غيرهِ . فكم من امرئ تراهُ باسمًا كالليث حين يبدو نابهُ وكم من وجه عبوس يبدو عليهِ الابتسام لحظة من الزمان فيخجل الالباب لانهُ يعرب عن سرور اكيد . وكان تنكرد من هذا القبيل وقد ورث ذلك عن امهِ فانها امرأة فاضلة رزينة اذا سرَّها شيء بدت دلائل السرور في وجهها فزادتها جمالاً على جمال لكن ابتسامها نادر مثل حلاها

لما جاء تنكرد الى الحفلة الراقصة التي مرَّ وصفها في الفصل السابق لم يكن ينتظر ان يجد فيها شيئًا يسرهُ لان فؤادهُ كان مشغولاً بالتفكير في مدائن المشرق ومفاوزهِ وما فيهِ من الانهر الاودية . وكان خجولاً بالطبع فلما نودي باسمهِ حين دخول الدار على جاري العادة في بيوت الكبراء وانتقل اسمهُ من فم خادم الى فم خادم آخر كأنهم اصداء بعضهم لبعض كاد يذوب خجلاً ولولا الشمم وعزَّة النفس لانقلب راجعًا على عقبهِ . ولكن لم يمضِ عليهِ عشر دقائق في تلك الدار حتى طلب من تلقاء نفسهِ ان يتعرَّف بسيدة من السيدات اللواتي كنَّ فيهِ . وهي اول مرة طلب فيها ذلك في حياتهِ . ثم لما عاد الى بيتهِ عاد وفي اذنهِ صوت يطربهُ وفي ذهنهِ صورة يسرُّ بها . ولما وقف ليخلع ثيابهُ قبل نومهِ طال وقوفهُ وهو يفكِّر في ما مرَّ عليهِ